بنو النضير.. وتنوع الإجرام اليهودي

الحقيقة التي كشف عنها القرآن بشأن اليهود، كما رأينا ذلك في آيات كريمات تبدأ بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.. الآية، وهي أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويشهدون الزور في حكمهم على عبدة الأوثان والمؤمنين، حيث قالوا على لسان زعمائهم وأهل الوجاهة الدينية فيهم لمشركي قريش: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾.

هذه الحقيقة، ما أحسبه مكروراً من القول: أن نعاود القول بضرورة المزيد من تبيُّن أبعادها، خصوصاً وأنها تبرز في معرض استخذاء اليهود أمام الباطل ومماألتهم الكفر وأهله على حساب الإيمان وأهله. وغير خاف أن علاقتهم بأمتنا اليوم ـ وقد تفنّنوا في تنويع الأذى ـ تأخذ مجالاً رحباً على ساحة الفكر عند كثير من أوليائهم، أو من يجهلون حقيقة أمرهم، بل عندالذين يتجاهلون الغصب والاعتداء الدائم، والاحتلال، ويسمون الأشياء بغير أسمائها.

وعلى هذا، فتبيُّن تلك الأبعاد: مظهر انتفاع بمسلّمات قد كشف عنها القرآن وأكدتها روايات الوقائع وأسباب النزول؛ وهي تدل ـ كما سبق ذكره ـ على أن اليهود كانوا يرون أنهم ـ وهم يواجهون رسول الله والمسلمين ـ يخوضون معركة متعددة الميادين، ومن ذلك ميدان الثقافة والفكر، ومن أجل ذلك أجاب كعب بن الأشرف، أو هو ومن كان معه ـ

كما في بعض الروايات ـ أجاب المشركين عندما سألوه نحن خير أم محمد؟ بقوله: أنتم خير وأهدى. ودلَّ ما روى الإمام الطبري عن ابن جريج أن كعباً ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ قد صغَّر أمر النبي ﷺ ويسَّره وأخبر قريشاً أنه ـ عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ـ ضالّ.

وتكاد تجمع روايات سبب النزول للآيات التي رأينا من قبل، أن مادار من الحوار بين اليهود وبين المشركين في مكة، كان بعد أن حصل ما حصل من بني النضير، وهرب كعب بن الأشرف إلى مكة، ليستنصر بأهل الشرك على محمد عليه الصلاة والسلام. ولقد كان من حديث هذا الذي حصل ـ كما ذكر أبو بكر محمد بن إسحاق المطلبي وغيره ـ أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ أعطاهما؛ وكان بين بني النضير وبين بني عامر حِلْف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ ـ حسبما نصت الوثيقة بينه وبينهم ـ يستعينهم في ديتهما، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم أجمعوا أمرهم على أن يغدروا برسول الله ﷺ حيث خلا بعضهم ببعض ـ ولم يكن فيهم رجل رشيد ـ فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ وتمالؤوا على أن يلقوا عليه حجراً من فوق جدار البيت الذي كان عليه الصلاة والسلام جالساً بجانبه، إذ قالوا: فمن رجل يعلوا

على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بنِ كعب أحدُهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة ـ ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم ـ فأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم؛ إذ أطلعه الله على ما همُّوا به من ذلك، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبثَ النبي ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه، فلَقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه عليه الصلاة والسلام، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحرب بني النضير، والسير إليهم، فحاصرهم وأجلاهم وفيهم ـ كما يقول العلماء ـ نزلت سورة الحشر بأسرها، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته وما سلّط عليهم به رسولَه ﷺ، وما عمل فيهم جزاءَ غدرهم ومكرهم، وما اجترحوا من المآثم، والبدء بالعدوان فقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾ [الحشر: ١ - ٣] ثم جاء تعليل ذلك كله بقول الله تبارك وتعالى ـ وهو المنزه عن الظلم سبحانه ـ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٤]. إلى آخر السورة.

وفي حديث موصول بما نحن فيه من أمر الحقيقة التي كشف عنها الحوار بين كعب بن الأشرف، أو كعب وآخرين وبين كفار قريش، تجدر الإشارة إلى أنه عندما افتضح أمر ما بيَّت بنو النضير من الغدر بالنبي ﷺ ـ وهو عندهم حيث أطلعه الله على ذلك ـ هرب كعب بن الأشرف إلى مكة، وكان بينه وبين سدنة الشرك يومذاك ما كان. أخرج الطبري بسنده عن السدي أنه قال: لما كان من أمر رسول الله ﷺ واليهود من النضير ما كان، حين أتاهم يستعينهم في دية العامريين، فهمُّوا به وبأصحابه، فأطلع الله رسوله على ما همُّوا من ذلك، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهرب كعب بن الأشرف حتى أتى مكة، فعاهدهم على محمد، فقال له أبو سفيان: يا أبا سعد إنكم قوم تقرؤون الكتاب وتعلمون، ونحن قوم لا نعلم! فأخبِرْنا: دينُنا خير أم دين محمد؟ قال كعب: اعرضوا علي دينكم، فقال أبو سفيان: نحن قوم ننحر الكوماء، ونسقي الحجيج الماء، ونقري الضيف، ونعمُر بيت ربنا، ونعبد آلهتنا التي كان يعبد آباؤنا؛ ومحمد يأمر أن نترك هذا ونتبعَه! قال: دينكم خير من دين محمد، فاثبتوا عليه، ألا ترون أن محمداً يزعم أنه بعث بالتواضع، وهو ينكح من النساء ما شاء! وما نعلم مُلكاً أعظم من ملك النساء، فذلك حين يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وما أُلقي على لسان هذا اليهودي الحاقد المزوِّر للحقيقة ـ في طعنه على محمد عليه الصلاة والسلام ـ هو وكلُّ ما يمت إليه بصلة: الغثاء الذي يلقى اليوم على لسان الطاعنين على رسول الله من قبل نفر من

المستشرقين والمستغربين ومن أتباعهم والموالين لفكرهم في كل أرض، والضلال ينتسب بعضه إلى بعض!!

ولقد أراد عدو الله ابن الأشرف، أن تكون مقالته في سيد العالمين، سهماً مسموماً يستعين به في إنجاز مهمته مع الكفار، لكن ـ مع الذي حصل من تحزيب الأحزاب وتعاون غطفان والأحابيش ومن تابعها مع قريش، حتى بلغ العدد قريباً من عشرة آلاف مقاتل... ـ خاب وخسر، وصدقَ الله وعدَه ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، إذ أرسل عليهم ريحاً، وجنوداً لم يرها المسلمون، وقتل هو بأيدي المؤمنين المجاهدين، وذهب بأثقال كفره وضلاله ومكره إلى الجحيم وبئس المهاد: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾.

قالة السوء.. وجحيم اللعنة

مُظاهرة الكفر على الإيمان ـ فيما رأينا من صنيع يهود في صفحات قريبات ـ هل هو تصرف فرد مرموق وكفى! أم أنه سمة من سماتهم يستخدم عند الحاجة، دون قيد من خلق أو دين؟!! هذه نقطة توجب مراعاةُ الإنصاف العلمي تحريرها قدر المستطاع، من خلال النصوص والوقائع.

فالآية الحادية والخمسون من سورة النساء يدل ظاهرها بوضوح على أن كلمات: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ كان قائلوها جماعة من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ كما توحي الروايات، وإن كانت بعض تلك الروايات لم تذكر بالاسم حييَ ابن أخطب أو كعب بن الأشرف عليهما وعلى أشياعهما لعائن الله. ولعل المقصود: أن من ذُكِر كان المقدَّمَ في تلك القالة الظالمة التي تحمل ما تحمل من العدوان على الحق، والبهتانِ العظيم في المفاضلة بين أهل الكفر الجاحدين المعاندين، وبين أهل الإيمان الصادقين المنيبين ـ الذين لا تعوزهم الحجة الدامغة لما يقولون ـ وتقريرِ أن أهل الشرك والضلالة أهدىٰ سبيلاً، من أهل الإيمان والتصديق.

وعلى أية حال: قد يكون البعض قالها بمناسبةٍ ما، والبعض الآخر قالها بمناسبة أخرى. والمهم في الموضوع: أنها حقيقة كشف عنها القرآن الكريم بعبارة النص التي لا تقبل شيئاً من الاحتمال. على أن هنالك عدداً من الروايات التي صرحت ـ كما سبق ـ بأن القائلين كانوا جماعة من اليهود،

وأن الأمر لم يقتصر على واحد من زعمائهم وهو حُيي بن أخطب، أو كعب بن الأشرف؛ وذلك ما يتسق مع النص القرآني دون تأويل، وهو ما سبقت الإشارة إليه من قبل. وروى الطبري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: «كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة: حُييٌّ بن أخطب وسلاّم ابن أبي الحقيق أبا رافع، والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق، وأبا عمار، ووحوح بن عامر، وهوذة بن قيس. فأما وحوح وأبو عمار وهوذة: فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هواء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم؛ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منهم وممن اتبعه! فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] إلى قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤] وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ـ الآية: «ذكر لنا أن هذه الآية أنزلت في كعب بن الأشرف، وحييٌّ بن أخطب ورجلين من اليهود من بني النضير، لقيا قريشاً بموسم، فقال لهم المشركون: أنحن أهدى أم محمد وأصحابه؟ فإنا أهل السِّدانة والسقاية، وأهل الحرم؟ فقالا: لا، بل أنتم أهدىٰ من محمد وأصحابه، وهما يعلمان أنهما كاذبان إنما حملهما على ذلك حسد محمد وأصحابه».

ذلكم هو البهتان العظيم؛ قالا ما قالا: وهما يعلمان أنهما كاذبان، وكان الحسد لمحمد ﷺ ولأصحابه، وراء هذا الانحراف الخطير، وكم لذلك من نظائر في تاريخ يهود... فالأغراض الهابطة والحسد الدفين

الشديد العاتي، مع ما يصحب ذلك من البغي والحقد الأسود، كل أولئك يجعلهم يتجاوزون قيم الدين والأخلاق، ولا يبالون بانتهاك الحرمات، وقلب الحقائق دون مبالاة.

والواقع أن ما يعرف من خلائقهم على ساحة التعامل مع المسلمين يؤكد ـ كما دلت الروايتان عن ابن عباس وقتادة ـ أن عتوَّهم في الحكم المتحدَّث عنه بالحكم بأن سبيل المشركين سبيل الهدى، لم يقتصر على كعب بن الأشرف أو حيي بن أخطب، ولكنه صدر عن جماعة لكل واحد منهم ما له من الزعامة في قومه والمكانة الدينية عند يهود. وقد أشرنا من قبل إلى أن ذلك مما يتسق مع النص القرآني دونما حاجة إلى التأويل.. وكون القائلين تلك القالة الظالمة جماعةً لا فرداً واحداً: هو ما رجحه شيخ المفسرين بعد النظر المتبصِّر في الآية الكريمة والروايات المتعلقة بسبب النزول، متأولاً ما جاء بشأن كعب أو حيي أخزاهما الله وجعل النار مثواهما. جاء في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» قوله ـ رحمه الله ـ: «وأولى الأقوال بالصحة في ذلك قول من قال: بأن ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن جماعة من أهل الكتاب من اليهود. وجائز أن كانت تلك الجماعةَ الذين سماهم ابن عباس في الخبر الذي رواه محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد، أو يكون حيياً وآخر معه إما كعباً أو غيره».

هذا: ولئن تعددت أسباب لعن اليهود وإبعادهم من رحمة الله تعالى: إن هذا البهتان في الشهادة للباطل وأهله، على الحق وأهله، كان واحداً من تلك الأسباب. فبعد قول الله جل شأنه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ**

الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء: ٥١] نقرأ قوله سبحانه: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥٢] وأنت ترىٰ أن الله سبحانه يعني بقوله: ﴿ أُولَئِكَ ﴾ هؤلاء الذين وصف صفتهم أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ويشهدون تلك الشهادة التي كلها زور وبهتان.

فهؤلاء اليهود، هم الذين لعنهم الله وأخزاهم فأبعدهم من رحمته.. ومن يلعن الله، أي ومن يخزه الله فيبعده من رحمته، فلن تجد له ـ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ـ ناصراً ينصره من عقوبة الله التي تَحُل به فيدفع ذلك عنه.. وإذن فهم متقلبون في جحيم اللعنة وليس لهم نصير يخرجهم منها.. وهم الذين تسبّبوا لأنفسهم في ذلك، فالله لم يظلمهم بهذا الحكم ـ على المدىٰ ـ ولكن أنفسهم يظلمون.

أولا يكفي ذلك ـ ومثله كثير ـ درساً ـ ما أبلغه من دروس ـ يحمل المسلمين على أن يحددوا موقفهم من أولئك المبعدين من رحمة الله ـ بما كسبت أيديهم ـ في ضوء ما جاء في الكتاب والسنة، وزخرت به السيرة المطهرة وأيدته الوقائع؟

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وخذ بأيدينا إلى حيث تتبع هذه الأمة المحمدية القول بالعمل، ولا تبخَل بالعطاء في مواجهة أعداء الله، كائنين من كانوا، يهوداً أو غير يهود، ظاهرين أو مقنَّعين، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة وأنت وحدك يا ربنا ولي الصابرين.

من بواعث الانحراف الفكري عندهم

كان من لطف الله بأمتنا: ما وقع فيه اليهود ـ في عصر النبوة ـ من تصرفات كشفت عن دخائل النفوس، وما تنطوي عليه الصدور؛ وكان العدوان على الحق بالشهادة لأهل الشرك بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً: واحدة من تلك المؤشرات التي تبدَّت عنوان حسد وضغْنٍ بالغين، مضافاً إلى ذلك أن الغاية تسوِّغ الوسيلة عندهم؛ لأنهم في معرض تحزيب الأحزاب من أهل الشرك للعدوان على المدينة وحرب رسول الله ﷺ والمسلمين.

لذا كان من عدل الله تبارك وتعالى ـ ولا يظلم ربك أحدا ـ أن أخزاهم وأنزل عليهم لعناته وطردهم من رحمته؛ فقال تعالى في أعقاب الكلام على تلك الطامة التي وقعوا فيها ـ والتي لا تلتقي مع دعاواهم العريضة على ساحة الدين في قليل ولا كثير ـ قال جل شأنه: في الآية الثانية والخمسين من سورة النساء: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥٢] فإذا كانوا قد استسهلوا قلب الحقيقة على هذا الشكل؛ فزعموا أن باطل أهل الشرك حقٌّ، طلباً لنصرة المشركين في مواجهة محمد صلوات الله وسلامه عليه.. فقد كان ذلك سبيلهم إلى تلك العاقبة السيئة والمصير الذي لا يُغْبَطون عليه؛ إذ حلَّ بهم الخزي والبعد من رحمة الله. ومن يخزه الله فيبعده من رحمته، فلن تجد له يا محمد نصيراً، يحول دونه ودون العقوبة النازلة به من الله، واللعنة التي

تحل به فيدفع ذلك عنه. ومما ورد من الآثار في ذلك: قول قتادة: قال كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ما قالا ـ يعني من قولهما ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ فأنزل الله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

وهكذا حملت الآية حكماً على اليهود يتلوه أهل الإيمان ويتدارسونه عبادةً، وعلماً إلى قيام الساعة. ومطلوبٌ منهم ـ واليهود لا يفتؤون يمكرون ويعتدون ويتربصون الدوائر بالمؤمنين ـ أن يتدبَّروه حق التدبُّر ويفقهوا مراميَه وأبعاده في نجوة عن التأثر بحرب الشائعات والعبث الإعلامي.. ذلكم الحكم: هو اللعن لهم والإخبار بأنه لا ناصر لهم ينصرهم من دون الله؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا لهم تلك القولة الآثمة التي لُعنوا بها ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاؤوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق حول المدينة.. وكانت مواقف الصدق والإيمان.. فكفى الله شرّهم وتنزّل على رسول الله فيما تنزّل قول الله تباركت أسماؤه في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وتنتقل بنا الآيات في سورة النساء، إلى الكشف عن بعض البواعث التي أعمت بصيرة اليهود، فاتخذوا ذلك الموقف المعادي، لكل ما هو إيمان وكل ما هو حق، فنقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣] فلو كان لهم نصيب

وحظ من الملك لم يكونوا إذًا يعطون الناس، ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً، ولا ما يملأ النقير، وذلك من شدة بخلهم وشحهم والعياذ بالله.

والنقير ـ على ما ذهب إليه ابن عباس والأكثرون هو: النقطة التي في ظهر النواة.

هذا: من الناحية المادية.. بخلٌ وإمساك عن إفادة الخلق، حتى بالنواة بل بالنقطة التي في ظهرها، أو بما يملؤها... فما بالك إذا تعلق الأمر بناحية معنوية يمكن أن ترفع من قدر الآخرين، وتجلبَ لهم النصرة في الدنيا والآخرة.

وهكذا فليس من المستهجن أو المستغرب، أن يقف اليهود ذلك الموقف المظاهر لأهل الكفر على أهل الإيمان ويقروا ـ على صعيد الفكر والاعتقاد ـ أن عابد الوثن هو السالك طريق الهداية القويم.. وأن صادق الإيمان بالله وكتبه ورسله، هو المنحرف عن الصراط المستقيم، ما دام في ذلك إضعاف لأعدائهم على ما يتوهمون.

وفي خطوة أخرى، تعمق الدلالة على مواطن الداءومكامن الخطر في القوم، وتُحَمِّل المسلمين أمانة الوعي والتبصّر، كيما يكونوا قادرين على تبين العلاقة بين النتائج والمقدمات.. أجل في خطوة أخرى تزيد المؤمن يقيناً بسلامة المنهج القرآني، في عرض ما يعرض من الحقائق، وهو يتحدث عن اليهود وينبه المسلمين على أخذ الحذر وعدم الغفلة: تطالعنا الآيتان الرابعة والخمسون والخامسة والخمسون من السورة نفسها سورة النساء: بقول الله جل شأنه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥].

أرأيت إلى هذه النقلة من الكلام على التناهي في البخل والشح عند اليهود، إلى الكلام على الحسد الذي تغلي به صدورهم، فيعمون عن الحق ويتيهون في مستنقعات الضلال. إن الآية الكريمة تحمل شديد العتب والتوبيخ لأولئك اليهود، الذين كان من صفتهم في آية مضت؛ قيلُهم للمشركين: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ وهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يقولون.. إنها تقول لهم: أتحسدون محمداً ﷺ وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله؟ لقد حسدوا النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة وحسدوا أصحابه ـ لكونه منهم وليس من بني إسرائيل ـ وعملت هذه الخلَّة القبيحة عملها، فأوردتهم مورد الهلكة، وألبسوا الباطل ثوب الحق وهم يعلمون حق العلم أنهم كاذبون.

روى الإمام الطبري عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ حسدوا هذا الحيَّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبياً فحسدوهم على ذلك. وروي مثل ذلك عن ابن جريج.

وهكذا حسدوا رسول الله وأصحابه على النبوة التي فضل الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام، وشرّف بها العرب، فمنعهم ذلك من الإيمان واتباع الحق، وجعلهم يقيسون الهداية والضلالة، بمقياس جاهلي ممعن في الضلال.

هذا: والحديث عن إيتاء الفضل ـ وهو النبوة ـ يحمل فيما يحمل تقريظ النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرحمة والرضوان.

هذا: ولما كان المسلمون يعيشون في ظلال هذا الخير الذي كانوا به خير أمة أخرجت للناس، فما عليهم إلا أن يؤوبوا إلى العمل به، وصياغة حياتهم على هديه جادِّين صادقين.. وأن يكونوا علي اليقين الذي لا يتزحزح، من أنه لا يحسم الموقف مع اليهود ـ بخاصة ـ وأعداء الله بعامة: إلا العمل وفق المنهج الذي رسمه القرآن وبينته السنة ووقائع سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وهذا لا يعني إغماض العين عن الواقع بما له وبما عليه؛ محلياً كان أو عالمياً؛ فالتعامل مع هذا الواقع ببصيرة ووعي، أمر بالغ الأهمية، دلَّت عليه نصوص الهدى في الكتاب العزيز والسنة المطهرة وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ تقعيداً للقواعد، وتطبيقاً عملياً لهذه القواعد، ومن الوهم الباطل ـ أو الدخَل الفكري أحياناً ـ دعوى أن الاحتكام إلى المنهج الرباني يعني عدم التبصُّر بالواقع، وتنهيج التعامل معه، ذلك؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كما لعنَّا أصحاب السَّبت!

من خلائق اليهود: ما يمكن أن تَدْعَوَه استنكاراً لفعل الله عز وجل، عندما يكون هذا الفعل على غير هواهم وما له يعملون؛ من ذلك أنهم يضيقون بفضل الله وإنعامه على الآخرين، فهم أبناء الله وأحباؤه ـ على ما يزعمون ـ والعطاء لا يتسع لغيرهم؛ من ذلك ما أخبر القرآن عن حسدهم محمداً ﷺ على أن آتاه الله النبوة، وحسدهم أصحابه على أن كانت النبوة فيهم وآمنوا به عليه الصلاة والسلام ولم تكن في بني إسرائيل، وذلكم ما سعدنا به في صفحات قريبات، من خلال الآية الرابعة والخمسين من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤]. وقد عملت هذه الخلّة ـ خلّة الحسد ـ عملها فهيمنت على العقول والقلوب، حتى ولّى القوم وجوههم شطر الضلال الذي يعلمون أنه ضلال، وتولّوا عما يعلمون ـ على وجه اليقين ـ أنه الحق معرضين مدبرين. ونسير مع الآية الكريمة لنقرأ قول الله تبارك وتعالى ﴿ ... **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾.

هكذا يقيم ربنا الحجة على هؤلاء المغضوب عليهم في صنيعهم هذا، فترى من منطوق الآية: أن الله جل ثناؤه يعني: أم يحسد هؤلاء اليهود ـ الذين ظهر ما ظهر من انحرافهم ـ الناس على ما آتاهم الله من فضله، من أجل أنهم ليسوا منهم! فكيف لا يحسدون آل إبراهيم، فقد جعلنا في

أسباط بني إسرائيل ـ الذين هم من ذرية إبراهيم ـ النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب، وحكموا فيهم بالسنن ـ وهي الحكمة ـ وجعلنا منهم الملوك..

ثم بيّن تعالى أن منهم من آمن به أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام الذي هو محض الفضل من الله عز وجل، ومنهم من صدّ عنه، أي كفر به وأعرض عنه، بل سعى في صدِّ الناس عنه؛ ذلكم قوله الله تباركت أسماؤه في الآية التي تلي: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥] لقد آمن البعض وصدَّقوا وكفر البعض، وكان منهم الصدود في أنفسهم، والعمل على أن يتعدى ذلك إلى الآخرين وهم منهم ومن جنسهم ـ أي بني إسرائيل ـ فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل... ذلك ما يزيد الحسد ضراوة ونار الحقد تأججاً؛ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جئتهم به من الهدى والحق المبين.

وقال مجاهد: فمنهم من آمن به أي بمحمد ﷺ من يهود، ومنهم من صدّ عنه. وهذا ما جنح إليه كثير من العلماء؛ إذ جعلوا الارتباط قائماً بين هذه الآية وبين قوله تعالى في الآية السابعة والأربعين من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧] جاء في «جامع البيان» عند تأويل قول الله عز وجل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: (يعني بذلك جل ثناؤه: فمن الذين أوتوا الكتاب من يهود بني إسرائيل الذين قال لهم جل ثناؤه: آمنوا بما أنزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس

وجوهاً فنردَّها على أدبارها ﴿مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ يقول: من صدّق بما أنزلنا على محمد ﷺ مصدقاً لما معهم، ومنهم من صدّ عنه، ومنهم من أعرض عن التصديق به ويستشهد لذلك بكلام مجاهد وآخرين.

وفي سير مع الارتباط الذي رآه العلماء بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ الآية اتجه شيخ المفسرين (إلى أن في الآية دلالةً على أن الذين صدّوا عما أنزل الله على محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي المدينة مهاجَرِ رسول الله ﷺ، إنما رُفع عنهم وعيدُ الله الذي توعدهم به في قوله: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ في الدنيا، وأُخرت عقوبتهم إلى يوم القيامة، لإيمان من آمن منهم، وأن الوعيد من الله بتعجيل العقوبة في الدنيا، إنما كان على مُقام جميعهم على الكفر بما أنزل على نبيه محمد ﷺ؛ فلما آمن بعضهم، خرجوا من الوعيد الذي توعدّه في عاجل الدنيا، وأخرت عقوبة المقيمين على التكذيب إلى الآخرة، فقال لهم: كفاكم بجهنم سعيراً).

والحق أن ما ختمت به الآية من قول الله جل شأنه: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ يحمل الوعيد الشديد لليهود على ما اجترحوا من الضلال، والمعنى: حسبكم أيها المكذبون بما أنزلت على محمد نبيي ورسولي، المعاندون المخالفون لكتب الله ورسله.. حسبكم النار تسعَّر عليكم، عقوبة على ذلك الضلال المبين والصدّ عن سبيل الله.

ومن بلاغة القرآن التي هي نهاية النهاية: ما نجد في الآيتين اللتين

تلتا، حيث التقابل بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين؛ تبياناً للعاقبة التي يؤول إليها أمر اليهود، ومن على شاكلتهم من أعداء الله ورسله، والعاقبة التي تنتظر المؤمنين المصدقين أحباء الله ورسله؛ فبعد الآية التي ختمت بتوعد اليهود بجهنم، نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء: ٥٦ – ٥٧].

إنها العظة البالغة التي تحمل أهل الإيمان إلى ساحة من الوضوح، يتبينون من خلالها تلك الحقائق عن ضلال اليهود، وما يرتد إليه كثير من تصرفاتهم؛ من الحسد الذي يأكل القلوب، والحقد الذي لا يكاد يدانيه حقد، إلا أن يكون صاحبه منهم، أو ممن هو على شاكلتهم في عدائه للإسلام والمسلمين.

والعاقل العاقل: من انتفع بالعظة وتجلية الحقيقة، واتخذ من ذلك قوة تدفع إلى الصدق في المواطن، ومواجهة اليهود والنصارىٰ ومن على شاكلتهم من نصارى الصهيونية وأعوانهم –؛ باللغة التي لا تُحَلُّ العقدة إلا بها، كما هو الشأن في هدي نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ومَن أحسنوا التأسيَ به عبر التاريخ. والله ولي التوفيق.

احذروا.. يودُّون لو يردونكم كفاراً

الحسد يصحبه البغي.. تلك الخليقة الهابطة التي عملت ـ وتعمل ـ في عمى اليهود عن الحق واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.. وكان لذلك ما له من آثار على صعيد الفكر والعمل والسلوك.. جاء القرآن على الكشف عن أبعادها عند أولئك الأناسي غير مرة. وقد رأينا بعضاً من ذلك فيما دل عليه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٤ – ٥٥].

وتجليةُ هذه الحقيقة التي كانت من بواعث الكفر بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، والصدِّ عن السبيل التي دعاهم إليها.. تنقلنا إلى ما جاء في سورة البقرة من إعلام الله المؤمنين، أن كثيراً من أهل الكتاب، يجمعون إلى عدم الإيمان: أنهم يودُّون لو يردون المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً. ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

هكذا جاءت الآية لتكشف بالصريح من القول، عن أن ودَّ هؤلاء اليهود من أهل الكتاب ـ أن يردوا الناس عن الإسلام: باعثُه الحسد من

عند أنفسهم.. والأسوأ من هذا: أن ذلك حصل منهم من بعد ما تبين لهم الحق ـ وهو صدق الرسول عليه الصلاة والسلام في دعوىٰ الرسالة وأن عليهم أن يؤمنوا بما جاء به لما أن كتابهم الذي يزعمون الإيمان به قد نصّ على ذلك ـ... ولكن الحسد الذي طغى على عقولهم وأكل قلوبهم، جنح بهم إلى طريق الكفر والمعاداة لرسول الله ولدعوته، وأصبحوا يعيشون في حالة نفسية مقيتة، لما تغلي به صدورهم من الرغبة الجامحة، في أن يرتد المسلمون عن الإسلام، ويصبحوا مع ذلك القطيع التائه من الكافرين. قال الإمام الطبري: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق وحدثنا أبو كريب قال: حدثنا ابن بكير قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياس بن أخطب من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ؛ كانا جاهدَين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم...﴾ الآية. وفي رواية عن الزهري وقتادة، أنه كعب بن الأشرف.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودي، كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ وفيه أنزل الله ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾.

وهذه الروايات التي تومئ إلىٰ واحد أو اثنين منهم، لا تنافي النص

على الكثير في الآية الكريمة.. إذ إن الروايات تحمل ما ظهر على السطح، من كون واحدٍ شاعراً، وكون واحد زعيماً مرموقاً في يهود.. وما من ريب في أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وأبا ياسر بن أخطب يمثّلون الظاهرة أوضح تمثيل، لأنهم من أهل الرأي وذوي الكلمة المسموعة عند اليهود...

وقد ردّ العلماء على من يتوهّم أن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعب بن الأشرف وحدَه، بأن هذا القول ليس له معنىً مفهوم؛ لأن كعب بن الأشرف ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ واحد، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيراً منهم يودون لو يردُّون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم، والواحد لا يقال له «كثير» بمعنى الكثرة في العدد، إلا أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة التي وصف الله من وصفه بها في هذه الآية، الكثرة في العزّ ورفعة المنزلة في قومه وعشيرته، كما يقال: «فلان في الناس كثير» يراد به كثرة المنزلة والقدر. فإن كان أراد ذلك: فقد أخطأ؛ لأن الله جل ثناؤه قد وصفهم بصفة الجماعة فقال: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ فذلك دليل على أنه عنى الكثرة في العدد. أو يكون ظن أنه من الكلام الذي يخرج مخرج الخبر عن الجماعة، والمقصود بالخبر عنه الواحد.. فيكون ذلك أيضاً خطأ.

وذلك أن الكلام إذا كان بذلك المعنى، فلا بد من دلالة فيه تدل على أن ذلك معناه، ولا دلالة تدل في قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ على واحد دون جماعة كثيرة، فيجوز صرف تأويل الآية إلى ذلك، وإحالة دليل ظاهره إلى غير الغالب في الاستعمال.

وإذن فكثرة من ودّوا ـ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ـ أن يرتد المسلمون عن الإسلام، ويولوا ظهورهم لما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام.. هذه الكثرة قائمة لا محالة.. والقرآن ـ وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ لا يخبر عن ذلك عبثاً، بل إنه يقرر الحقيقة التي علينا أن نؤمن بها، وننتفع بذلك الإيمان في تحديد المواقف، ورصد التحركات.. وتنمية الملكة القادرة على ربط النتائج بمقدماتها.. والبعدِ عن الغفلة أو الانحراف في تفسير الوقائع، وتبين دلالتها على ساحة التحدي والمواجهة مع المغضوب عليهم، الذين همُّهم الكيد والأذى، بسبب ما تعتلج به صدورهم من الحسد والحقد والضغينة على المسلمين.

هكذا حسد أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ المسلمين على ما أعطاهم الله من التوفيق، ووهب لهم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله، وخصهم بأن جعل رسوله إليهم رجلاً منهم رؤوفاً بهم رحيماً، ولم يجعله من بني إسرائيل فيكونوا لهم تبعاً..

إنها الداهية الدهماء.. لا يؤمنون، ولا يريدون لغيرهم أن يؤمن!! بل يريدون لمن يؤمن، لو عاد كافراً مثلهم؛ كل أولئك بدافع الحسد من عند أنفسهم مصحوباً بالبغي.. ولو كانوا لا يعرفون الحقيقة، وأن التوراة قد دلتهم على النبي عليه الصلاة والسلام، وأمرتهم بالإيمان به.. لكان الأمر أقل سوءاً ـ على ما فيه من السوء والضلال ـ... ولكن هؤلاء الكثيرين، منهم ودوا ذلك الوُدَّ من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد ﷺ، وما

جاء به من عند ربه، والملة التي دعا إليها فأضاء لهم الحق الذي لا مرية فيه. جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رواية الضحاك «قوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول الله تعالى ذكره: من بعد ما أضاء لهم الحقُ لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجَحْد، فعيَّرهم الله ووبخهم ولامهم أشد الملامة)».

وانظر كيف تعبِّر كلمة ﴿وَدَّ﴾ عن عميق الرغبة الممتزجة بالعاطفة، وشديد الميل الظالم إلى ما هو نقيض ما تبين لهم من الحق. قال قتادة – رحمه الله –: «من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله ﷺ والإسلام دين الله». وروى الطبري عن أبي العالية: «تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل».

اللَّهم بصّرنا الحقيقة واجعلنا ممن ينتفعون بها، كي لا تزلَّ الأقدام، وتُطيحَ الغفلة بذوي الحقوق المستضعفين!

إرادة خير للمسلمين.. ممتنعة بإطلاق

لا تثريب على المسلم أن يبدئ ويعيد في تلمُّس كل ما يعين على فهم الحقيقة في عدوِّه، وما يتسم به من خلائق وصفات نفسية. وفي هذا العصر الذي اضطربت فيه المفهومات واختلت الموازين عند الكثيرين: يبدو الأمر أكثر إلحاحاً بالنسبة لعلاقتنا بيهود وبواعث الأذى العميقة في نفوسهم؛ فحقيقة أن الحسد المصحوب بالبغي والحقد الدفين ـ مثلاً ـ صفة من الصفات النفسية المستحكمة عند اليهود، وسمة من السمات التي تطبع سلوك الفرد والجماعة فيهم.. هذه الحقيقة جاء التصريح بها والإشارة إليها في العديد من نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهّرة، وصدّق وجودَها الذي لا يخطئ الناظرَ؛ كثيرٌ من الوقائع التي جاءت عليها السيرة العطرة. ـ كما رأينا من قريب ـ.

وهي حقيقة تزيد من ثقل الأمانة في أعناق المسلمين: أن يديروا حركة التعامل مع هذا اللون من بني البشر، على أساس من وضوح الرؤية المستلهم من كتاب الله العزيز، والطريقة التي عاملهم بها رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ حيث المواجهة المحكمة، ووضع الأمور مواضعها، حسبما تقتضيه مصلحة الأمة، خصوصاً وأن مما هدانا إليه كلام الله المعجز ـ الذي هو الصدق كلُّه واليقين كلُّه ـ أن اليهودي يهوديٌّ في أي زمان وفي أي مكان، مهما تقلبت الظروف، وتطورت المفهومات الفكرية عند الناس، ولذلك خاطب القرآن اليهود الذين عاشوا متنزّلَ القرآن، وكأنهم

هم الذين شاركوا في صنيع الآباء والأجداد، قتلاً للأنبياء، وتشوفاً إلى الشرك، ومجاهرة لله ولرسله بالعداوة وأتباعهم، ومظاهرة للباطل على الحق وأهله، في محاولة للتفلُّت من أحكام السماء، مع الدعوى العريضة أنهم «المستمسكون بالتوراة، الأمناءُ على الدين الذي أنزل على موسى عليه السلام».

ومما جاء في تفنيد هذه الحقيقة المومى إليها ـ وهي واحدة من كثير في نصوص الكتاب والسنة: ما رأينا في سورة النساء، وهي سورة مدنية ـ من قول الله تبارك وتعالى في شأن يهود: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...**﴾ [النساء: ٥٤] جاءت الآية تنديداً بما كان من حسدهم رسول الله ﷺ والمسلمين، أن كانت النبوة فيهم ولم تكن في اليهود، وكان لذلك ما له من آثار غاية في السوء، لعل من أبرزها ـ على الصعيد الفكري ـ أنهم شهدوا لكفار قريش عبدةِ الأوثان، أنهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه. وكيف ننسى ما جاء في سورة البقرة من قول الله جل شأنه: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم..**﴾ الآية، تبياناً لتلك الصفة التي ملكت عليهم القلب والعقل، وألقت بثقلها الهابط على النفوس؛ فهم يودُّون لو يردُّون أهل الإيمان كفاراً يسلكون مع القطعان التائهة طريق جهنم؛ كفراً وركوباً لطريق الضلالة المردي والعياذ بالله.

والذي يزيد من شناعة هذا الودّ الظالم عندهم، أنهم يحبون لو حصل هذا التحول من بعد ما تبين لهم الحق، وعرفوا أن ما عليه المسلمون

هو الحق الذي نزل به الكتاب، وبشَّر به الإنجيل والتوراة من قبل، على صورة لا تحتمل شيئاً من اللبس أو الغموض.

ويقودنا البحث عن مظاهر هذه الحقيقة، إلى ما نجد في سورة البقرة أيضاً، من إعلامنا أن الحسد الذي لا تنطفئ له نار في قلوب اليهود، جعلهم وأتباعهم من المشركين، لا يحبون أن ينال المسلمينَ أيُّ نوع من أنواع الخير، فضلاً عن أن ينزل عليهم الفرقان، وما أوحاه ربنا تبارك وتعالى إلى محمد ﷺ من حِكَمِه النيرات واياته الهاديات إلى سواء السبيل.

وإنها لنفحة من نفحات الإعجاز، تدل أعظم دلالة على أن القرآن كلام الحكيم الخبير، الذي يعلم ما انطوت عليه نفوس أولئك الأناسيِّ أعداءِ الله ورسله، وينبّه عباده المؤمنين على تلك الخلائق النفسية، كيما يكونوا على يقظة تامة، ويأخذوا حِذْرهم على كل صعيد، وفي كل ميدان؛ ذلك بأنهم عندما يواجهون اليهود وأتباعهم، يواجهون عدواً هذه بعض خلائقه؛ فما يخفيه من الحقد والحسد والبغي: أشد وأنكىٰ مما يظهره في ميدان المواجهة، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] لأن ما يخفىٰ، هو الباعث على تلك التصرفات التي لا تعرف إلى الهداية سبيلاً، ولا تمت إلى الأخلاق المرضيّة عند الله بسبب. ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥].

وما بدٌّ من التنبيه على أن هذه الآية الكريمة، جاءت بعد آية نهت

المؤمنين عن أن يقولوا كلمةً شاع في اليهود استعمالها استعمالاً يحمل الكثير من قلة الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي قول: ﴿رَاعِنَا﴾ وأمرَهم باستعمال البديل وهو ﴿انظُرْنَا﴾ والآية المعنيَّة هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]. وهكذا حملت الآية الكريمة الهادية، إلى المسلمين هذا النفي القاطع عن الذين كفروا من أهل الكتاب اليهود، ومن هم على سَنَنهم وزمرة أتباعهم من المشركين، أن يكونوا على ودٍّ أن يتنزل على المسلمين شيء من الخير.. بجانب أن اليهود يودون لو يعود المسلمون بعد إيمانهم كفاراً.

وإذا كان الأمر كذلك: فغير جائز مطلقاً ـ أن يركن أهل الإيمان إليهم، أو يحاولوا تقليدهم وسلوك مسلك ينتهجونه في الفكر والنظرة إلى الدين، وما لديهم من معايير التعامل والسلوك. وإنها لقضية لا يرتضي العقل السليم غيرها؛ فالذين لا يودُّون للمسلمين أيّ لون من ألوان الخير مهما دقَّ أو جلّ ـ كما أخبر عن ذلك العليم الخبير ـ ويحبون لهم أن يرتدوا على أعقابهم: كفراً بعد إيمان، كيف يسوغ الاطمئنان إليهم أو الركون إلى ما يطالعون به أهل الإيمان، مهما ألقوا على دعاواهم من البهرج الذي قد يأخذ بلب البسطاء، وقدّموها بزخرف القول ومعسول الكلام؟!.

والذي يزيد من ثقل الأمانة في الأعناق، ولا يدع عذراً لمعتذر، بعد الذي كشف عنه الكتاب الكريم ونبّه عليه: ما يُرى من الوضوح في تبيان

تلك الحقيقة، حقيقة ما يحمل أولئك الأعداء للمسلمين من الضغن في النفوس؛ فتأويل الكلام في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ـ كما يقول العلماء ـ: ما يُحبُّ الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزّل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزّله عليكم. فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزّل الله عليكم الفرقان، وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته. وإنما كره اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك، حسداً وبغياً منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالة بيِّنة على أن الله تبارك وتعالى، نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع إلى قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون.

اللَّهم وفق المسلمين لتدبُّر كتابك، وطاعتك في العمل به وبسنة نبيك محمد عليه الصلاة والسلام، كيما يكونوا على الصراط السوي في مواجهة أعداء الحق والإنسان.

وصلى الله وسلم وبارك على نبي الهداية والرحمة إمام المجاهدين الذي علَّم أمته الكتاب والحكمة وعلى آله وصحابته أجمعين..

حُرموا بخلائقهم.. رحمة الله للمؤمنين

أراني مسوقاً إلىٰ تأكيد أن النظرة المتدبرة في نصوص المنهج الرباني، تقف على أن العناية بالكشف عن خلائق يهود وصفاتهم النفسية التي يواجهون بها أعداءهم: أمر على غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين، كيما يكونوا قادرين على إحكام المواجهة التي تتجدد ميادينها يوماً بعد يوم، وأن يظلُّوا على ذكر من البواعث التي تقود المغضوب عليهم، في الحرب التي لا تنطفئ نارها على الإسلام والمسلمين.

وقدوقفتنا من قريب آيات مباركات من سورتي البقرة والنساء، على حقيقة أن الحسد المصحوب بالبغي وعمدية الإيذاء وتمني المساءة: من الصفات النفسية المتأصلة عند يهود، وأن ذلك كان مبعث كثير من الشرور، ظهرت آثارها في الفكر والسلوك، على صعيد التعامل مع أهل الإيمان.

وإذا كان الأمر كذلك ـ ورحى الحرب دائرة مع أعداء الله والإنسان ـ فالدين والعقل السليم، يوجبان على أمة خير الأنام ﷺ، أمة الرسالة الخاتمة والشهادة على الناس، عدم الركون إلى اليهود وأشياعهم من النصارىٰ وسدنتهم من المنافقين والمشركين. وهذا الذي وقفتنا عليه تلكم الآيات المذكَّر بها، تحملنا إلى ما دلّت عليه ـ في هذا المجال ـ آيات من سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ الأمر الذي يدل على أن التنبيه على خلائق اليهود وصفاتهم جاء مبكراً في حياة المسلمين كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

لقد دلت تلكم الآيات، على أن اليهود بحسدهم العاتي رسولَ الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، وبغيهم عليهم، ظلموا أنفسهم ظلماً كبيراً ـ ناهيك عن ظلم الحق والإيمان ـ وجرّوا عليها الكثير من الوبال؛ إذ إن النبي ﷺ بعث رحمة للعالمين، ولو آمنوا به واتبعوه لنالتهم تلك الرحمة، ولغمرهم نورها وعمّهم فضلها، ولوضع عنهم رسول الله إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.. ولكن الضغن الذي باض وفرَّخ في نفوسهم جيلاً بعد جيل، حملهم على ذلك العتوِ والكفران، بل وعلى الإعراض عن قبول التخفيف الذي جاء به محمد ﷺ وهو الرحمة المهداة..

وما من ريب في أن ذلك، إنما كان لغلبة خذلان الله عليهم.. وما جنحوا إليه من الانحراف المهلك عامدين، بعدما تبين لهم الحق، وعلموا علمَ اليقين أن محمداً ﷺ رسول من عند الله، مبلغ عن ربه ما أراد.. لا يأتي رسالتَه الباطل، ولا يحومٌ حولها أثارة من شك أو ريبة.. ولكنه الحسد الذي يجني على صاحبه قبل أن يجني على الآخرين.. ولكنه البغي والتعطش إليه في أيٍّ من الأقوال والأفعال ومنهج السلوك.

والآيات التي نعنيها من سورة الأعراف: هي قول الله تبارك وتعالى ـ بدءاً من الآية الخامسة والخمسين بعد المائة ـ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٥ - ١٥٧].

فالآيات الكريمات تبين أجلى بيان وأوضحه، أن الله تبارك وتعالى قال لموسى بعد أن دعا بقوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ ومعناها: تبنا إليك، قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وتبع ذلك إخباره سبحانه عن صفات الذين سيجعل لهم هذه الرحمة ويغمرهم بفضلها، والشرطِ الوثيق الذي يُدخِل المرءَ في عداد أصحابها المستحقين لها؛ فهم الذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياته ـ جل شأنه ـ يؤمنون.

ومع خطوة أخرى على ساحة التحديد التي توحي بأن أمة محمد ﷺ هي المقصودة بذلك، تلا ذلك من الصفات: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ وهذا الرسول الأمي الذي جاء النص على رسالته في التوراة والإنجيل: يأمر المؤمنين بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.. وأكثر من هذا.. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.. فالنبي الأمي يضع الإصر، العهد الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع

الجلد من البول، وتحريم الغنائم، وغير ذلك من الأعمال التي كانت مفروضة عليهم، نتيجة تشددهم وتعنتهم، فنسخها حكم القرآن.

وكان ابن زيد يقول في قوله تعالى: ﴿وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قال: الأغلال وقرأ ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] قال: تلك الأغلال. قال: ودعاهم إلى أن يؤمنوا بالنبي فيضعَ ذلك عنهم.

وختمت الآيات بتقرير أن المفلحين هم أولئك الذين آمنوا بالنبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه، وعظموه وحموه من الناس وأعانوه على أعداء الله وأعدائه بالجهاد، واتبعوا النور الذي أنزل معه وهو القرآن والإسلام ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

تلكم هي الصفات والشرائط التي لا بد من توافرها، ليكون أصحابها ممن سيكتب الله لهم الرحمة. وقد تحقق ذلك ـ والحمد لله ـ في أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. ولو أن اليهود آمنوا وصدّقوا، لنالتهم الرحمة وعمّهم فضل الله وإحسانه، ولكن الحسد الذي تغلي به صدورهم، حال دونهم ودون الإيمان، ووقعوا فريسة للضغن الأسود والحقد الدفين، فحرموا من أن يكونوا ممن كتب الله لهم الرحمة؛ وارتد أثر تلك الخصلة الخبيثة إليهم.

روىٰ الإمام الطبري بسنده عن قتادة قال: «فما نقموا ـ يعني اليهود ـ إلا أن حسدوا نبيَ الله، فقال الله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ فأما نصره وتعزيره: فقد سبقتم به، ولكن خياركم من آمن بالله واتبع النور

الذي أنزل معه». قال أبو جعفر: (يريد قتادة بقوله: إلا أن حسدوا نبي الله: أن اليهود كان محمد ﷺ ـ بما جاء به من عند الله ـ رحمة لهم لو اتبعوه، لأنه جاء بوضع الإصر والأغلال عنهم، فحملهم الحسد على الكفر به، وترك قبول التخفيف، لغلبة خذلان الله عليهم).

والحمد لله الذي هدانا إلى اتباع النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه. والحمد لله الذي غضبَ على اليهود بما كفروا وظلموا. وله ـ سبحانه ـ الأمر من قبل ومن بعد.

وحسد خاص.. على أمور خاصة بأعيانها

من الأمور التي تستوقف الناظر في خلال اليهود والتي كشفت عنها نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وصدقتها الوقائع التي تحدثت عنها السيرة، وما فاض به التاريخ من مفارقاتهم على وجه العموم... من تلك الأمور: أن الحسد الذي كان ـ وما يزال ـ قرين البغي و الحقد عندهم: يأخذ اتجاهين:

أما الأول: فهو الاتجاه العام؛ إذ يحسدون المسلمين على وجه الإطلاق، لما أن رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام كانت فيهم، ولم تكن في بني إسرائيل، ولما أنهم آمنوا وصدقوا وحازوا الشرف العظيم في الدنيا، مع التمكين الذي يفوّت على اليهود فرصة العلو في الأرض والفساد، وفي الآخرة طوْبى لهؤلاء المسلمين وحسن مآب.

وأما الثاني: فهو الاتجاه الخاص.. إذ بجانب الحسد المطلق، يحسدون المسلمين على قضايا كثيرة معينة أكرم الله بها الأمة المحمدية... وهذا اللون من الحسد مع سابقه: ظلمات بعضها فوق بعض. ولقد حملت إلينا السنة النبوية بعض النصوص التي تكشف عن هذا، وتنبه المسلمين على الخطر الكامن في نفوس أولئك الأناسي، وكيف أن حقدهم في تجدد دائم، وأن بغْيَهم الأسود لا تكاد تحدُّه حدود. جاء في مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: حدثنا عاصم

عن حصين بن عبد الرحمن عن عمر بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود فقال: السَّام عليك، فقال النبي ﷺ: وعليك. قالت: فهممت أن أتكلم، ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك: فقال النبي ﷺ وعليك. قالت: ثم دخل الثالثة فقال: السَّام عليك، قالت: فقلت: بل السَّام عليكم وغضبُ الله إخوانَ القردة والخنازير، أتحيُّون رسول الله ﷺ بما لم يحيِّه به الله، قالت، فنظر إليَّ فقال: مَهْ إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش. قالوا قولاً، فرددناه عليهم، فلم يضرنا شيئاً، ولزمهم إلى يوم القيامة. إنهم لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» وقال ابن ماجه: حدثنا إسحاق ابن منصور قال: أخبرنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا حماد ابن سلمة قال: حدثنا سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على الإسلام والتأمين» قال العلماء: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات احتج مسلم بجميع رواته.

وغير خاف أن الروايتين كلتيهما، تدلان دلالة واضحة صريحة على أن هنالك حسداً للمسلمين، يتمرغ اليهود في أوحاله النتنة: هو حسد على أمور خاصة، وهو أشد منه على أمور كثيرة غيرها، وتراه يَصْحَبُ ذلك الحسد المطلق الذي عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا

﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...﴾ [البقرة: ١٠٩] والأمور الخاصة التي كانت مبعث الحسد المعنيٌ هنا أكثر من غيرها: هي يوم الجمعة، والقبلة، وقول المسلمين خلف الإمام: آمين ـ وهذا ما دلت عليه رواية الإمام أحمد ـ والسلام والتأمين، وهو ما دلّت عليه رواية ابن ماجه.

ومما يدعو إلى الاستغراب مرة بعد مرة، ويكشف عن مدى التِقَامِ تلك الخلة الخبيثة لعقل اليهودي وقلبه: ما كان من أمر اليهود بشأن القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، كما جاء في قول الله جل شأنه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤] وتحويلها من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، فمما ورد في ذلك من النصوص ـ وهي وفيرة مباركة ـ ما قال علي بن طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عزو وجل: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنز الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢].

وهكذا حاول اليهود أن يدسوا أنفهم في قضية لا تخصهم، ولكنها تتعلق بصلاة المسلمين، والقبلة التي يتوجهون إليها في تلك الصلاة،

وذلك لإثارة الفتنة، والعمل على تشكيك الضعفاء؛ ولذلك سماهم الله السفهاء بصنيعهم هذا الذي استهدف ـ فيما استهدف ـ توظيفاً سيئاً لصنيع أولئك الذين شاركوا في تلك المحاولة الآثمة؛ فعلى اختلاف الأقوال في المقصود بـ ﴿السُّفَهَاءُ﴾ في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية أَهُمْ مشركوا العرب، أم أحبار اليهود، أم المنافقون؟ فإن الآية عامة بلفظها في هؤلاء كلهم، ولكن أقدرهم على الدسِّ والإيقاع، وتولي كبر الفتنة في هذا المجال: هم اليهود، لما أنهم ـ أهل الكتاب المتعالون على العرب بأنهم كذلك ـ ويتبعهم أولئك البُلْهُ الذين ختم الله على قلوبهم من المنافقين والمشركين.

وإذن فاليهود يقولون بعد تحويل القبلة، وأمر المسلمين بالتوجه شطر المسجد الحرام، بعد أن كانوا يتوجهون شطر بيت المقدس: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ ويتبعهم في قالة السوء من يتبعهم من أهل الشرك والنفاق..

ترى هذا، وتراهم ـ فيما بعد ـ تغلي صدورهم حسداً وحقداً، أن اختار الله المسجد الحرام قبلة للمسلمين في صلاتهم، بعد أن ظلَّ رسول الله ﷺ في المدينة يصلي ستة عشر أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس.

تبدأ القضية الماكرة بقولهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾؟ وهو تساؤل يحمل ما يحمل من نفثات الدس وإثارة الشك والفتنة.. وتنتهي بما كشف عنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، بأن هؤلاء

المغضوب عليهم لا يحسودننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى السلام، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين.

ولسنا نبالغ إذا اتجهنا إلى أن من الممكن تفسير الكثير من الوقائع الظالمة الآثمة في تصرفات اليهود ماضياً وحاضراً، بأن مردّها إلى تلك الخلّة الخبيثة وأمثالها. إنهم يحسدون المسلمين ـ فيما يحسدونهم عليه ـ ذلك البنيان الضخم الذي بنوه عبر التاريخ تحت راية العقيدة التي أسلمتهم إلى العلم والعمل والجهاد، ويودون ـ حسداً وبغياً ـ لو ينقضّ هذا البناء الحضاري العملاق على صعيد الفكر والتصور اليوم.

ولكن الله غالب على أمره، وهو القادر ـ جل شأنه ـ على أن يعود بالمسلمين إلى الطريق التي يستأنفون معها مسيرة الخير الظافرة، كيما تعلو كلمة الله، وينتصر الحق، ويتحرر الإنسان على الوجه الذي ينبغي. ولله عاقبة الأمور.

السَّام عليكم.. وإخوان القردة والخنازير

ما نزال مع الرحلة التي تصلنا ـ على ساحة المعرفة ـ بواحدة تأتي في سلسلة الحقائق المتعلقة بالصفات النفسية ليهود؛ وهي أنهم ـ بجانب حسدهم المطلق للمسلمين، الذي يودُّون معه لو يعود هؤلاء المسلمون كفاراً يخسرون الدنيا والآخرة ـ يحسدون الأمة المحمدية على كثير من الأمور بأعيانها، ولكنهم على هذا الصعيد لم يحسدوا المسلمين على شيء، حَسَدَهم على بعضٍ مما أنعم الله به عليهم، من أمور وثيقة الصلة بعبادتهم وعلاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض.

ففيما يتعلق بالعبادة هم شديدو الحسد على ما هدى الله المسلمين له من الجمعة، والقبلة، وقول «آمين» خلف الإمام.

أما عن الأمر الذي يتصل بعلاقات المسلمين الاجتماعية التي تقوم على أخوة الإسلام والانضواء تحت راية التوحيد: فهي «السلام» تحية أهل الجنة، إذ جعلت تحيتهم «السلام عليكم ورحمة الله، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ولعل من الخير متابعة النظر، في مدلولات ومرامي ذلك النص المثقل بالعبر والدروس، حين يعبر عن الدخائل النفسية عندهم على لسان المعصوم عليه الصلاة والسلام وهو ما أوردنا ـ من قبل ـ من حديث النبي ﷺ الذي روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ والذي حمل إلى الأمة خبر

الانحراف الذين يتجافى عن إنسانية الإنسان ـ أعني خبر الغيظ والغِل من تلكم النعم الكبار التي أومأنا إليها، وأنهم لم يحسدونا على شيء حسدهم عليها. ذلكم ما روى الإمام أحمد بسنده عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ اتسأذن ـ رجل من اليهود، فأذن له، فقال: السام عليك، فقال النبي ﷺ: وعليك. قالت: فهممت أن أتكلم، قالت: ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك. فقال النبي ﷺ: وعليك. قالت: ثم دخل الثالثة فقال: السَّام عليك، قالت: فقلت: السَّام عليكم وغضب الله إخوان القردة والخنازير، أتحيُّون رسول الله ﷺ، بما لم يحيِّه به الله!! قالت: فنظر إليَّ فقال: مَهْ إن الله لا يحب الفحش والتفحش؛ قالوا قولاً فرددناه عليهم، فلم يضرنا شيء ولزمهم إلى يوم القيامة. إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» وفي سنن ابن ماجه بالسند المتصل عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ قال: ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين » والتأمين مفسّر في الرواية السابقة بأنه قول المسلمين خلف الإمام: آمين. ومعناها «استجب» فهم يدعون لله أن يستجيب ما حملت الفاتحة أم الكتاب من دعاء.

هذا: والسَّام الوارد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: معناه الموت؛ وواضح من هذا أن ذلك اليهودي الماكر كان يعبث بالتحية؛ فبدلاً من أن يقول للنبي عليه الصلاة والسلام: السلام عليكم، كان يقول له: السام عليك أي الموت عليك؛ يدعو عليه ـ فداه أبي وأمي ـ بهذا. وتكرر ذلك

منه مرات ثلاثاً، عليه وعلى أمثاله لعائن الله. وأنت واجد أن السيدة عائشة، قد أثار حفيظتها هذ العبث العابث في تحية الرسول عليه الصلاة والسلام بما لم يحيِّه به الله وهو تحية السلام، وعندما قالت بعد أن كرر اليهودي قالته فنطق بها الثالثة.. السّام عليك وغضب الله إخوان القردة والخنازير أتحيون رسول الله بما لم يحيِّه به الله!! وجهها رسول الله علية الصلاة والسلام إلى ما هو الأسمى فقال: مَهْ إن الله لا يحب الفحش والتفحش، مع أنها كانت ـ رضي الله عنها ـ تقول الحقيقة وكان البادئ بالشر هو اليهودي، وقد أصّر على كلمته الظالمة أعادها ثلاثاً...

ولكنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يعلم عائشة، بل الأمة جميعاً، أن هنالك ـ في رد مثل هذا الأذى ـ مع كون كلام عائشة حقاً ـ ما هو أسمى ـ كما سبق ـ فبيّن لعائشة بعد أن أمرها بالكف عن ذلك بقوله: «مَهْ» بأن الرد على اليهودي بطريقته هو عليه الصلاة والسلام: أولى؛ ذلكم قوله صلوات الله وسلامه عليه: «قالوا قولاً فرددناه عليهم ـ حيث كان يقول له: وعليك ـ فلم يضرنا شيء ولزمهم إلى يوم القيامة». مع أن هنالك رواية في الصحيح أن اليهود كانوا جماعة ولكنها قالت لهم: «عليكم السام والذام واللعنة».

ولكن الذي يستوقف الناظر في هذه الواقعة أكثر وأكثر: أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو المؤيد بالوحي ـ كشف عن الحقيقة التي يرتد إليها صنع هذا اليهودي في قوله للرسول عليه الصلاة والسلام: «السام عليك» تلك الحقيقة هي أن مبعث ذلك: الحسدُ.. فالحسد الذي يأكل

قلبه ويعميه عن الحق، حمله على ذلك الصنيع الذي لا يصدر إلا عن ماكر حاقد، لا يبالي استبدال اللؤم والحِطَّة بالكلام الطيب والخلق النبيل.

وبيّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن ما صدر عن هذا اليهودي، ليس مقصوراً عليه وحده، ولكنه خلق اليهود جميعاً، وهو خلق مبعثه الحسد الذي لا يبقي ولا يذر إنه حَسَدٌ على تلك الأمور التي هدى الله المسلمين لها وضلّ عنها اليهود. انظر إلى قوله صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو يلجأ إلى التعميم في حكمه على يهود ـ: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين» وفي الرواية الأخرى: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين».

السّام والسَّوْم: الموت. والذَّام والذَّيْم. العيب. قال ابن الأثير في «النهاية»: ومنه حديث عائشة «قالت لليهود: عليكم السَّام والذَّام» واللعنة: الطرد والإبعاد من الله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ذلك الخلق الذي كان سِمةً من سمات اليهود في تحيتهم لرسول الله والمسلمين: ندّد به القرآن الكريم ضمن صفات ذكرها الله تبارك وتعالى عنهم، وجاءت الأحاديث الصحيحة في تقريرها وبيانها؛ ذلكم قول الله جل شأنه في الآية الثامنة من سورة المجادلة ـ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ**

حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ [المجادلة: ٨].

اللهم اهد قلوب المسلمين لأداء الأمانة فيما بيَّن كتابك وسنة نبيك من حقائق عن أعدائهم اليهود، واجعلهم يفيدون منها على طريق الإعداد لمعركة فاصلة لا يضمن نتائجها لأهل الحق، إلا الجهاد الصادق الصابر في سبيل الله، والحمد لله على كل حال.

خلائقهم .. والعبرة اليوم

الأسلوب القرآني الحكيم في الحديث عن خلائق يهود، وتنبيه الأمة على مدى الارتباط بين تلك الخلائق وبين طرائقهم في التعامل مع الرسول ﷺ والمسلمين.. هذا الأسلوب الحكيم الفريد.. يحملنا على مزيد من العناية بأن تأخذ كل مسألة على هذه الساحة أبعادها في العقول والقلوب، كيما يكون للقناعة: ذلك الحضورُ المؤثر في المواجهة.. ذلك بأن أخطار هؤلاء الفئام من الناس تتجدّد في كل يوم، وبأن بُعدَ المسلمين في كثير من الأحيان عن المورد العذب في هدايتهم، المورد الذي كانوا به خير أمة أخرجت للناس، يجعل من الضرورة بمكان، تعميق الدلالة التي حملتها نصوص الكتاب والسنة في هذا الشأن، كيما يفيء هؤلاء المسلمون إلى الحق الذي اؤتمنوا عليه، ودَعَوْا إليه، ويدركوا ضرورة الالتزام بما وجّه إليه الكتاب الكريم، وبيانه من هدي النبي عليه الصلاة والسلام ـ ثم ما تبع ذلك من وقائع استوعبتها السيرة المطّهرة، وهي وقائع أكدت ـ وما تزال تؤكد ـ تلك الحقائق التي تقطع بوجودها النصوص.

أقول هذا، وقد وقفتنا من قريب كلمات هاديات على شيء من آثار الحسد عند اليهود ـ والحسد خليقة متأصلة فيهم ـ وذلك ما كان من أسلوبهم المنكر في تحية النبي عليه الصلاة والسلام، وآية هذا الصنيع استبدالهم كلمة «السام» ـ وهو الموت ـ بكلمة «السلام» فتراهم يحيّونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقولهم: (السام عليك) ثبت ذلك في السنة

برواية أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي سمعت ذلك مرات بأم أذنها. وقد صدّق وقوعَ ذلك منهم: القرآن الكريم أوضح تصديق وأبينه؛ فقد جاءت سورة المجادلة على ذِكْره، مع التنديد بلون من ألوان مكرهم وخبثم؛ وهو تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مكراً ـ بالمسلمين وهزواً بالإسلام ـ.. ذلكم قول الله جلّ ذكره: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ ولقد كشفت الآية الكريمة عن أن سوء صنيعهم بتحية السوء، كان يصحبه استخفاف مشين، وما يشبه التحدي لقدرة الله عز وجل: ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** ﴾ أي يقولون بعد خروجهم: لو كان محمد نبياً، لعذبنا الله بما نقول، ومعلوم أن «لولا» في العربية أداة عَرْضٍ وحضٌ.

وكون اليهود هم المعنيين في الآية الكريمة: هو ما نطقت به الآثار التي حملتها المصادر الموثقة؛ كالذي روي عن مجاهد في ذلك. وروى الطبري بسنده عن ابن أبي نجيح في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى** ﴾ الآية أنه قال: اليهود. لقد نهوا عن التناجي بالإثم والعدوان: طعناً بالإسلام، ومكراً بالمسلمين، ونبيهم عليه الصلاة والسلام، ثم تراهم يعودون لما نهوا عنه، دونماحياء أو مراعاة لمابينهم وبين النبي ﷺ من الموادعة.. ويضيفون إلى ذلك، أنهم إذا جاؤوه ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق المؤيد بالوحي ـ حيّوه بتحية تنبئ عن سوء الطوية، والاستخفاف بما عظم الله، ناهيك عن الحسد الذي أضلّهم وأعمى

أبصارهم، وفي الوقت نفسه يسوّل لهم الشيطان: أن لو كان محمد صادقاً، لعذبنا الله بما نقول.. إنها طامات، كلٌّ واحدة أسوأ من أختها، ظلمات بعضها فوق بعض.

وهذا الذي نومئ إليه بشأن الآية ودلالتها على صنيعهم ـ عليهم غضب الله ولعناته ـ: هو ما دلت عليه النصوص؛ فالذي أوردناه عن مجاهد وابن أبي نجيح بأن المعنيّين في الآية هم اليهود: روي مثله عن مقاتل بن حيّان وزاد ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ، جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن؛ فإذا رأى المؤمن ذلك: خشيهم وترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا، وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ أجل يعودون إلى النجوى! وبم يتناجون؟ إنهم يتناجون بالإثم، والعدوان ومعصية الرسول، إنهم يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم، ومن هذا العدوان: معصية الرسول ومخالفته؛ يصرُّون عليها ويتواصون بها، ويعملون جاهدين على أن يأخذ ما يتناجون به على هذه الشاكلة ـ من السوء البالغ والضلال المبين ـ طرقه إلى التنفيذ في علاقتهم بالمسلمين، مع أن الموادعة بينهم وبين النبي ﷺ، كانت تقتضي غير ذلك!

ولكن اليهود هم اليهود.. قابلوا كل ما قدَّمه لهم رسول الله من الإحسان، والحرص على العدل، وحفظ الحقوق وصيانتها، بالإساءة والمكر

والتآمر، بل وقلة الأدب في تحيتهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام. وهذا ما كشفت عنه الآية الكريمة بعد الكلام على عودهم إلى ما نهوا عنه من النجوى الآثمة، وتناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ والمعنى ـ والله أعلم ـ وإذا جاءك يا محمد هؤلاء الذين نهوا عن النجوى، الذين وصف الله جل ثناؤه صفتهم، نبَّه على صنيعهم، حيّوك بغير التحية التي جعلها الله لك تحية، وكانت تحيتهم التي كانوا يحيونه بها، ـ التي أخبر الله أنه لم يحيه بها فيما جاءت به الأخبار كما رأينا من قبل ـ أنهم كانوا يقولون: السام عليك أو السأم عليك.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة وعليكم السام، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش قلت: ألا تسمعهم يقولون السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: أوما سمعت أقول وعليكم؟ فانزل الله ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ وقال الإمام البخاري: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، ففهمتها فقالت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا: قال رسول الله ﷺ قد قلت عليكم».

وهذه الرواية ـ كما نرى ـ أفصحت فيها عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها فهمت ما أرادوا بتلك التحية الضالة؛ إذ أن السَّام معناه الموت.

يا سبحان الله!! ما هذا الذي يعتلج في صدور هؤلاء الناس من الحسد والحقد والغيظ؟! وأيُّ داهية تصيب المسلمين، إن هم غفلوا عن مثل هذه الحقيقة أو تجاهلوا أن ما عليه اليهود اليوم، صورة نكدة هي أسوأ مما كانوا عليه بالأمس؟!!.

وصلىٰ الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة محمد عليه الصلاة والسلام الذي واجه هؤلاء المعنيين في الآية ـ بعد أن طفح الكيل ولم يبق في القوس منزع ـ باللغة التي لا يصلح لهم سواها. والله ولي التوفيق...